العرب
الأحد 2019/10/27
السنة 42 العدد 11510

اللغة المتحيزة تعرقل المساواة بين الجنسين

أنصار المرأة يصرون على تحريرها من ذكورية اللغة

"ارتبـاط اللغة بالجنـس كمفهوم وفعـل يجعل من حضور ذكـر واحد في مجموعة من الإناث يختفين" ما قاله وأقره النحاة حمل الكثير من الدارسين على وصف اللغة العربيـة بأنها متحيزة ضد المرأة، وبدل معالجة الظاهرة أفرطت المجتمعات العربية في تعميق التفوق في بعض الاستعمالات اللغوية لفائـدة الذكر دون الأنثى، بل وتحويل تأنيث عدة مفردات إلى فضاء للتندر على النساء.

بين الرفوف لغة ساهمت في إقصاء وتهميش النساء

شيماء رحومة
صحافية تونسية

قاد أساتذة فرنسيون، في العام 2017، حملة جمعوا خلالها نحو 27 ألف توقيع في عريضـة تطالب بإلغاء قاعدة التذكير والتأنيث في اللغة الفرنسـية باعتبارها تحيـزا ضـد المـرأة. إلا أن الأكاديميـة الفرنسـية وقفت بوجه هذه الحملة التي قادهـا نحو 300 أسـتاذ، معتبرة في ذلك تهديدا للغة الفرنسية بالموت والانحسار و"هجوما عليها وهدما لقواعدها".

ووصل الجدل بشـأن اللغـة وتغيير قواعدها إلى مؤسسات الدولة الفرنسية، فأصـدر رئيس الـوزراء حينهـا، إدوار فيليـب، مذكـرة تمنـع إلغـاء التذكيـر والتأنيث في المراسـلات الرسـمية، جاء فيهـا أن "صفـة التذكيـر حيادية يمكن استعمالها لتشمل المرأة".

لكن هذا القرار وسـع دائـرة الجدل فـي أوسـاط المثقفـين ودعاة المسـاواة بين الجنسـين فـي اللغة وخبـراء اللغة والتعليـم في فرنسـا، وهو جـدل امتد أيضا ليشـمل مجتمعـات لغوية أخرى، ومنهـا اللغـة العربية، التـي تجمع من المفارقات الذكورية/الأنثوية الكثير.

تلتقـي أغلـب اللغـات عنـد نقطـة أن تغليـب المذكـر على المؤنـث مصدره الرئيسـي أن واضعي اللغـة وقواعدها على مر التاريخ هم الذكور. واليوم، ومع التحرر من قيد سـيطرة جنس على آخر، وإن بصـورة نسـبية، تعالـت الأصوات المطالبة بالمساواة في اللغة أيضا. ويرى أنصار المسـاواة أن تغليـب المذكر على المؤنث في قواعد اللغة تحيز ضد النساء، وأنه حان الوقت لتغيير هذا "الإجحاف"، وقد بدأ بعض الكتاب فعلا يخرجون عن هذه القواعد في كتاباتهم.

النحاة رجال

يقـول خبـراء لـ"العـرب"، إن اللغـة العربية تحمـل في طياتها جريرة مجتمع ذكوري فصّلها وفق نظرته للمرأة. ويذهب البعـض إلـى تبنـي نظريـة "المؤامرة" باعتبار أن جميع النحاة الأولين هم رجال.

قالت "وما السـعي إلى الحفاظ على دلالة اللغة المذكـرة إلا مزيدا من تكريس تكلّس اللغة الذي يعكس بالضرورة تكلس الفكر الذي نحتها وظروف نحت تلك المفردات".

لكن بين هذا الحرص الذي يدعو إليه الخيّـون على الحاجة إلـى تأنيث بعض الكلمـات وبـين الإبقـاء علـى تذكيرها، ظهـرت الكثير مـن التأويـلات الضمنية المعادية والمسـيئة للمرأة والمخالفة كليا للمعنـى الظاهر، فتأنيـث بعض الألقاب على سـبيل المثـال كالنائب/نائبة (وهي التسـمية التـي تطلـق علـى العضو أو العضوة بمجلس الشعب)، يجعل المفردة في صيغتها المؤنثة تفضي إلى ربط المرأة بالمصيبة بوصف المعنـى المضمر للكلمة يحمل هذه الدلالة.

وهو ما يعمق مـن إقصاء وتهميش النسـاء، كمـا ذهـب إلـى ذلـك الباحث العراقي، حـين ربط هذه القـراءات التي تحمـل في ظاهرها طرافـة وفي بواطنها اسـتعلاء على تاء التأنيـث، قائلا "هناك قياسـات خاطئـة أخذت تسـتخدم، بعد أن أخـذت المـرأة تبـرز فـي السياسـة والوظائـف"، وبالتالـي فالتفسـيرات متعمـدة غاياتها الحط مـن مكانة المرأة حين تستلم منصبا هاما أسوة بالرجل.

أكثر من معنى

في المقابـل، يرى بعض المتخصصين في اللغـة أن الكلمات التـي تم تقديمها كدليـل على هذا التحيـز يمكن أن تحمل أكثـر مـن معنـى. ويعتبـرون أنـه لا يشـترط في تأنيث الصفة أن تلحقها تاء التأنيـث دائما؛ فمن الصـواب أن يقال: حرمك المصـون، والعطـوف، والطموح، والقاضي، والنائب، وهي بذلك تسـتوي مع المذكر.

وقدموا صفات تحولهـا تاء التأنيث إلـى معنى جميل، كالقـول للمذكر عاف، وللمؤنـث عافيـة، والعافية هـي مطلب جماعـي بما تحمله مـن معاني تدل على تمام الصحة.

وكان الدكتور بسـام عورتاني، باحث فلسـطيني مختـص في علـم الاجتماع، برّأ فـي حديث سـابق لـ"العـرب" اللغة مـن التحيّـز ضـد المـرأة، قائـلا "اللغة العربية أداة تؤنـث وتذكّر كما يحلو لك، وبالتالـي طريقة الاسـتخدام هـي التي تطرح إشكالية التمييز، يعني المشكلة في الثقافة وطـرق التفكير لدى المجتمع، فإن كان يحمل ثقافة عنصريـة، فإنه بالتالي سيبحث عن مفردات تخدم عنصريته وإن كان يميز بين النسـاء والرجال فسيبحث عـن مفردات فـي اللغة تخـدم ما يصبو لـه.. إذن اللغة عموما ليسـت لها علاقة بالتمييز أو العنصرية".

وشـددت الزيـادي فـي حديثهـا لـ"العـرب" علـى أن "اللغـة كائـن حي وليست كيانا مقدّسـا منزّلا. بمعنى أنها قابلـة للتطـور والتطويـر"، معتبرة أن "اللغـة كائـن حـي متطور يمـر بمراحل وتفاعـل مع أوعيته الزمنية والإنسـانية والاجتماعيـة وبالتالي فـإن ذلك تترتب عليه عدة نقاط".

وأوضحـت أن "النقطـة الأولى، بما أن اللغة مخلوقة وهـي وعاء للفكر ولكل طارئ فهي بالتالي تؤثـر فيه وتتأثر به، وثانيا بما أنها كذلك فهي حتما سـتكون مـرآة لعصرهـا ولعلمائهـا وأفكارهـم ومـا كان رائجـا في عصورهـم وما كان مُضمرا".

وتابعـت "أمـا ثالثـا، لمـا كان ذلـك كذلك سـنجد بعض الكلمـات التي يمكن أن تحمـل صيغـة المذكـر وحدهـا ليس لعلامـة جنسـية بارزة فيهـا فهي مجرد دال لسـاني ومدلول، لكنهـا في اعتقادي تأثـرت بالمضمر واصطُلح بها على المذكر والمؤنث".

ولفتـت الزيـادي فـي خاتمـة حديثها إلى أنه "على اعتبار أن اللغـة كائن حـي ومتطور فمن العبث والعشـوائية التمسـك بصيـغ معينـة فيهـا بدعوى أنها القاعـدة. في حين أنه من المعقول جدا الدعوة إلى إحياء المجمّعات اللغوية لبسط هذه القضية وإيجاد مخرج مشرف لها يراعي فيها الحضور المؤنث الذي فرض نفسه وخرج من ظلال علماء اللغة القدامى ومن عباءاتهـم ليعلن ذاته واسـتقلاله التام".

ويـرى الكاتـب الجزائـري، نبيـل دبابـش، أنـه "لا يوجـد مرجـع بعينه حـول الموضوع بل اللغـة تعكس ذهنية المجتمـع.. والعرب لهم ذهنيـة ذكورية ولهـذا نجدهـم يغلبـون الذكوريـة في كل خطـاب.. ونفس الشـيء موجود في اللغات اللاتينية".

وأكـد دبابـش لـ"العـرب" أن هـذا التحيز ضد المرأة يتعرض إلى الذكورية فـي اللغـة، مشـيرا إلـى أن"تصنيـف الكلمـات أساسـه بنية المجتمـع.. وكل المجتمعات التقليدية ذات بنية ذكورية.. قليلة هي المجتمعات الأميسية (أو النظام الأمومي: نظام اجتماعي ظهر في مرحلة تاريخيـة من تطـور المجتمـع البدائي، حيـث كانت الأم تمثل دور المسـيطر في الاقتصاد الاجتماعـي، وهو نظام عرفته جميع الشعوب بدون استثناء)".

لكن من الطريـف والمفارقة أن المرأة كانت سببا مباشرا في نشأة علم النحو، وإن كان العديـد من الدارسـين ربط ذلك باللحـن عند المرأة، لكن هذا لا ينفي أنها كانت الواعز الأساسـي لقيام هذا العلم بذاته.

ويقال حول ذلك إن دوافع أبوالأسود الدؤلـي لوضع علم النحو كانت بسـبب ابنتـه، حيـث وثـق كتـاب "الأغانـي" للأصفهاني هذه القصـة التي جاء فيها أن أبا الأسـود الدؤلي دخـل على ابنته فـي يوم شـديد الحرّ، فقالـت له مخبرة عـن حرارة الجو: يا أبت ما أشـدُّ الحر؟ فجعلت الدال مرفوعة، فظن أنها تسأله: أي زمـان الحر أشـد؟ فقال لها: شـهرا ناجر (صفـر)، فقالت موضحـة: يا أبت إنما أخبرتك ولم أسألك، وفي الواقع أنه كان واجبا عليها أن تنصب الدال، لتعني التعجـب مـن شـدة الحـر، ولكنها لحنـت، فانتبـه العالـم العراقي لوجـوب وضع قواعـد للنحو تحميه من اللحن والخطأ.

وإن كانـت هـذه القصة توضح أسباب نشأة النحو العربي، فإنها شـكلت عند البعض سـببا إضافيا لربطهـا بتهميـش المرأة.

حول ذكورية اللغة العربية

حسام الحداد
باحث مصري

اللغة العربية لغة "ذكورية" تمارس انحيازها العلني والمباشر للرجل على حساب المرأة، حيث يمكن لذكر واحد أن يلغي مجتمعا كاملا من النساء في تذكير الأفعال، وقد ساوت اللغة العربية صرفيا بين الاسم العربي المؤنث والاسم الأعجمي.

ونجد أن التمييز النوعي "ذكر/أنثى" لا يقتصر على الممارسات والأفعال بل يمتد إلى الخطاب واللغة، في انتصار لهما للذكر دون الأنثى. حيث أن "ذكورية الخطاب ومنها ذكورية اللّغة في حَد ذاتها، نتاج لوعي ثقافي كامل يجعل من مركزية الذكر أساسا للحركة والتعبير وإنتاج الثقافة".

وإذا تتبعنا تجليات الثقافة الذكورية في بنية اللغة العربية فسنجده جليا، وهذا طبيعي ما دام الخطاب هو لسان الثقافة ووريثها الشرعي. ونذكر هنا على سبيل المثال لا الحصر حديث ابن عقيل عن جمع المذكر السالم "فيشترط في الجامد: أن يكون علما، لمذكر، عاقل، خاليا من تاء التأنيث، ومن التركيب..." والمتتبّع لهذه الشّروط المجحفة يُدرك الخلفية الذّكورية، والغريب هنا إقحام تاء التأنيث ضمن هذه الشروط مما يجعلها تقابل الذكورة من ناحية وتقابل العاقل من ناحية ثانية، فكأن إقحام العاقل شرطا من شروط قبوله جمع المذّكر السالم اعتراف بعدم وجود الأهلية في الأنثى ما دامت قد جُمعت معه.

وقد لمحنا ذلك في تحليل ابن عقيل، حيث يقول "وإن كان علما لغير مذكر (يقصد أنثى) لم يجمع بهما، فيقال في زينب زينبون، وكذا إن كان علماً لمذكر غير عاقل»، وحسب ما وضحناه من شاهد ابن عقيل يتبين لنا كيف يساوي بين العَلم المذّكر غير العاقل والعَلم المؤنث العاقل، وهي مساواة تنبع من عقلية ذكورية تحط من قيمة الأنثى وتُعلي من قيمة الذّكر".

ولا تقف العنصرية الذكورية ضد الأنثى على هذا فقط بل نجدها في قضية التنوين، إذ تُعد جنة التنوين حلماً صعب المنال أمام نضالات التأنيث، فبنية اللّغة العربية تحرم الأنثى حقها من التنوين.

إن التنوين في العُرف اللّغوّي دخول ساحة التمّكن في اسمية أو ما سماه النحاة «تنوين التمكين»، وهذا ما يجعل سماته خالصة لا تشوبها شبهة، والتنوين في اللّغة «نون زائدة ساكنة تلحق الآخر لغير توكيد»، وهي نون تُثبت لفظاً وتسقط كتابة.

وقد تطفو النزعة الذكورية من خلال ظاهرة الممنوع من الصرف والتنوين أكثر حين نلاحظ شيوخ النحو يعلّلون المنع من التنوين للاسم المؤنث المنقول من المذكر، يقول المرادي "أو منقولاً من مذكر نحو 'زيد' إذا ما سُمي به امرأة، لأنه حصل بنقله إلى التأنيث ثقل عادل خفة اللّفظ".

> ذكورية اللّغة نتاج لوعي ثقافي كامل يجعل من مركزية الذّكر أساسا للحركة والتعبير وإنتاج الثقافة

وليس هذا فقط، وإن ما يُمنع من الصرف والتنوين كلما اقترب من دائرة التأنيث، إذ يجيز سيبويه انصراف الصفات التي على وزن فعلى إن كانت ألفها لغير التأنيث، أما إن كانت ألفها للتأنيث، فإنها تُمنع، ويتعمق أكثر في التعليل الذكوري حين يتعرض أيضاً لباب "ما لحقته ألف التأنيث بعد ألف"، ويصّرح بأن ذلك منعه من الانصراف في النكرة والمعرفة. ونرى أيضا أن معظم تعليلات سيبويه في قضية الصرف والتنوين هي تعليلات ذكورية، وأحيانا يعلنها صراحة حاملة معها آنفة الذكر، يقول سيبويه "ذلك أن المذكر أشد تمكناً، فلذلك كان أحمل للتنوين"، "هذا باب ما ينصرف في المذكر البتّة مما ليس في آخره حرف التأنيث".

شعار سيبويه ومن تبعه من النحاة هو "إنما كان المؤنث بهذه المنزلة ولم يكن كالمذكر، لأن الأشياء كلّها أصلها التذكير ثم تختص بعد، فكل مؤنث شيء، والشيء يذكر، فالتذكير أول وهو أشد تمكناً" وعليه يمكن القول إن الأصلية والفرعية هي التي حكمت هذه القسمة، بحيث تحولت المرأة، حسب عبارة سيبويه، إلى شيء في قوله "كل مؤنث شيء"، وبالتالي فهي تابعة للمذكر ذليلة له.

رشيد الخيُّون:
هناك قياسات خاطئة أخذت تستخدم بعد أن أخذت المرأة تبرز في السياسة والوظائف

هند الزيادي:
اللغة كائن حي وليست كيانا مقدّسا منزّلا. بمعنى أنها قابلة للتطور والتطوير

نبيل دبابش:
العرب لهم ذهنية ذكورية ولهذا نجدهم يغلبون الذكورية في كل خطاب